بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكيةٌ كلُّها من غير خلاف[١]، وهي ستون آية[٢]

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى الترمذِيُّ عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ ظهرتِ الرومُ على فارسٍ، فأعجَبَ ذلك الْمُؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال: فَفَرِحَ المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. هكذا قرأ نصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيُّ «غَلَبَتِ الرُّومُ»[٣]. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمَّ منه. قال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ؛ قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم سيَغلِبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتُم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكِرَ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ .

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٢). وهذه القراءة شاذة، وسيوردها المصنف قريباً عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

obeikandi.com

للنبيِّ ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دون العشرة. قال: ثم ظهرتِ الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال سفيان: سمعتُ أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[١]. ورواه أيضاً عن نِيَار بن مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ قال: لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وكان فارسُ يومَ نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظهورَ الروم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريشٌ تُحِبُّ ظهورَ فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل اللهُ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. قال ناسٌ من قريشٍ لأبي بكر: فذلكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبكم[٢] أنَّ الرومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين! أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون وتواضعوا الرِّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنينَ إلى[٣] تسعِ سنين، فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فَسمَّوا بينهم ستَّ سنين. قال: فمضَتِ السِّتُ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلتِ السنةُ السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعابَ المسلمون على أبي بكر تسمية سِتِّ سنين. قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناسٌ كثير. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٤]. وروى القُشَيْرِيُّ وابن عطية وغيرهما: أنه لمَّا نزلتِ الآياتُ خرجَ أبو بكرٍ بها إلى المشركين فقال: أَسَرَّكُم أن

(١) سنن الترمذي (٣١٩٣).

(٢) في النسخ: صاحبك. والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في النسخ: أو. والمثبت من سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٩٤).

غُلبتِ الروم؟ فإنَّ نبيَّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبيُّ ابن خلف وأُميَّةُ أخوه - وقيل: أبو سفيان بن حرب -: يا أبا فَصِيل[١] - يُعرِّضون بكنيته بالبَكر[٢] - فلْنَتَنَاحَبْ - أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يُحرَّم القمار، وجعلوا الرِّهان خمسَ قلائِصَ، والأجلَ ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرِّهان ثلاثَ قلائِصَ. ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «فهلَّا احتطْتَ، فإنَّ البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع[٣] والعشر، ولكنِ ارجِعْ فزِدْهم في الرِّهانِ واستزِدْهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائصَ مئةً، والأجلَ تسعةَ أعوام، فغلبتِ الرومُ في أثناء الأجل[٤]. وقال الشَّعبيُّ: فظهروا في تسع سنين[٥]. القشيريُّ: المشهور في الروايات أنَّ ظهورَ الروم كان في السابعة من غَلَبَةِ فارس للروم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبي تصحيفٌ من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائِصَ سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوحِ كسرى أبرويز فَتَحَ فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقَّاش وغيره: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ لمَّا أراد الهجرة مع النبيِّ ﷺ تعلَّقَ به أُبيُّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلاً بالخَطَرِ[٦] إن غلَبتُ. فكفِلَ به ابنُه عبد الرحمن[٧]، فلمَّا أراد أُبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه

---

(١) والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه. الصحاح (فصل).

(٢) في (ظ): بكنية أبا بكر، وفي (م): بكنيته يا أبا بكر. والمثبت من (د) و(ز) والمحرر الوجيز.

(٣) في (ظ) و(م): والتسع، والمثبت من (د) و(ز)، وكذلك وقع في رواية الترمذي (٣١٩١) من حديث ابن عباس ﷺ، ولم يذكر: والعشر. قلنا: والقول في أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر هو قول قتادة والأصمعي فيما ذكر النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ دون قوله: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. والقلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة. الصحاح (قلص).

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠١ .

(٦) أي: بالسبق الذي يُتراهن عليه. الصحاح (خطر).

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

كفيلاً، ثم مات أُبيٌّ بمكة من جرحٍ جرحَه النبيُّ ﷺ، وظهرتِ الرومُ على فارس يوم الحديبية على رأسِ تسع سنينَ من مُناحبتهم. وقال الشَّعبيُّ: لم تمضِ تلكَ المدَّةُ حتى غلبتِ الرومُ فارسَ، وربطوا خيلَهم بالمدائن، وبنَوا رومِيَة؛ فقَمَر[1] أبو بكرٍ أُبيًّا، وأخذ مالَ الخَطَرِ من وَرَثَتِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «تصدَّق به» فتصدَّق به[2].

وقال المفسِّرون: إنَّ سببَ غَلَبَةِ الرومِ فارسَ امرأةٌ كانت في فارسَ لا تلِدُ إلَّا الملوكَ والأبطال، فقال لها كسرى: أُريدُ أن أستعمل أحدَ بنيكِ على جَيشٍ أُجهِّزُه إلى الروم. فقالت: هذا هُرمُز أرْوَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر، وهذا فَرُّخان أَحَدُّ من سِنان، وأنفَذُ من نَبْل، وهذا شهربزان أحلَمُ من كذا، فاخْتَرْ. قال: فاختار الحليم وولَّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر على الروم. وقال عكرمة وغيره: إن شهربزان لمَّا غلبَ الرومَ خرَّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سريرِ كسرى، فكتب كسرى إلى شهربزان أن[3] أرسل إليَّ برأس فَرُّخان. فلم يفعل، فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملتُ عليكم فَرُّخان، وعزلتُ شهربزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهربزان، فأراد فَرُّخان قتل شهربزان، فأخرج له شهر بزان ثلاثَ صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرُّخان، فقال شهربزان لفَرُّخان: إنَّ كسرى كتبَ إليَّ أن أقتُلَكَ ثلاث صحائف وراجعتُه أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتابٍ واحد؟! فردَّ المُلْكَ إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم، فتعاونا على كسرى، فغلبتِ الرومُ فارس ومات كسرى، وجاء الخبر إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، ففرح مَنْ معه من المسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أرض الشام. عكرمة: بأذْرِعات[4]، وهي ما بين بلاد

(١) أي: غلب. الصحاح (قمر).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ .

(٣) كلمة أن من (د) و(ز).

(٤) من قوله: وقال عكرمة وغيره... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

العرب والشام. وقيل: إنَّ قيصر كان بعثَ رجلاً يُدعى يُحنَّس، وبعث كسرى شهربزان، فالتقيا بأذرِعاتَ وبصرى، وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضعٌ بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين(١). و«أدنى» معناه أقرب(٢). قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس(٣) في قوله:

تنوَّرْتُها من أذْرِعاتَ وأهلُها ... بيثرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلمَّا طرأ ذلك وغلبتِ الرومُ سُرَّ الكفارُ، فبشَّرَ اللهُ عباده بأنَّ الرومَ سيغْلِبون وتكونَ الدُّولةُ لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة: «غَلَبَتِ الرُّومُ» بفتح الغين واللام(٤). وتأويلُ ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانتِ الروم غلبت، فعزَّ ذلك على كفار قريش، وسُرَّ بذلك المسلمون، فبشَّرَ اللهُ تعالى عباده أنهم سيغْلِبون أيضاً في بضع سنين. ذكر هذا التأويل أبو حاتم(٥). قال أبو جعفر النحَّاس: قراءة أكثر الناس: «غُلِبت الروم» بضمِّ الغين وكسر اللام. ورُوِيَ عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا «غَلَبَتِ الروم» وقرأا: «سيُغلبون»(٦). وحكى أبو حاتم أنَّ عِصْمة روى عن هارون أنَّ هذه قراءة أهل الشام، وأحمد بن حنبل يقول: إنَّ عِصْمةَ هذا ضعيف، وأبو حاتم كثيرُ الحكاية عنه، والحديث يدلُّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ دون قوله: إن قيصر... والعجم.
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٧ .
(٣) في ديوانه ص ٣١ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٢ .
(٤) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما. وقد سلفت قريباً عن نصر بن علي الجهضمي.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .
(٦) قراءة: «سيُغلبون» في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

على أنَّ القراءة «غُلِبتْ» بضَمِّ الغين، وكان في هذا الإخبار دليلٌ على نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ لأنَّ الروم غلبَتْها فارس، فأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ أنَّ الرومَ ستغلِبُ فارسَ في بضع سنين، وأنَّ المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الرومَ أهلُ كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عزَّ وجلَّ به مما لم يكن[١]، وأمر أبا بكرٍ أن يُراهنهم على ذلك وأن يُبالِغَ في الرهان، ثم حُرِّم الرِّهانُ بعدُ، ونُسِخَ بتحريم القِمار[٢]. قال ابن عطية[٣]: والقراءةُ بضمِّ الغين أصحُّ، وأجمع الناس على «سيغلِبون» أنه بفتح الياء، يُراد به الروم. ويُروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضمِّ الياء في «سيغلِبون»، وفي هذه القراءة قلبٌ للمعنى الذي تظاهرتِ الرواياتُ به. قال أبو جعفر النحَّاس[٤]: ومن قرأ: «سيُغلبون» فالمعنى عنده: وفارسُ من بعدِ غَلَبِهم ـ أي: من بعد أن غَلَبوا ـ سيُغلبون.

ورُوِيَ أنَّ إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذيّ، ورُويَ أنَّ ذلك كان يوم الحُديبِية، وأنَّ الخبرَ وصلَ يوم بيعة الرِّضوان. قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية[٥]: وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمين بغَلَبة الرومِ وهمِّهم أن تُغلَبَ إنَّما هو أنَّ الرومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان كما تقدَّم بيانُه في الحديث. قال النحَّاس[٦]: وقولٌ آخر وهو أولى: أنَّ فَرَحَهم إنَّما كان لإنجاز وعدِ الله تعالى؛ إذ كان فيه دليلٌ على النبوَّة؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه. قال ابن عطية[٧]: ويُشبه أن يُعلَّلَ ذلك بما يقتضيه النظرُ من محبة أن

---

(١) بعدها في (م) كلمة «علموه» وهي ليست في النسخ ولا في إعراب القرآن.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٣ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما قبله منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

Obeikandi.com

يغلِبَ العدوُّ الأصغر؛ لأنه أيسرُ مؤونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثُرَ الخوفُ منه. فتأمَّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثَه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملكٍ يستأصله ويُريحهم منه.

وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنَّ جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر. حكاه القُشَيْرِيُّ.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون سرورُهم بالمجموع من ذلك، فسُرُّوا بظهورهم على عدوِّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله.

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميُّ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «من بعد غَلْبِهم» بسكون اللام[١]، وهما لغتان، مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرَّاء أنَّ الأصل «من بعد غلبتهم» فحُذِفت التاءُ كما حُذفتْ في قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ» وأصلُه: وإقامة الصلاة. قال النحَّاس: وهذا غلط لا يُخِيل على كثيرٍ من أهل النحو؛ لأنَّ «إقام الصلاة» مصدرٌ قد حُذِفَ منه لاعتلالِ فعله، فجُعِلَتِ التاءُ عوضاً من المحذوف، و«غلب» ليس بمعتَلٍّ ولا حُذِفَ منه شيء. وقد حكى الأصمعِيُّ: طَرَدَ طَرَدًا، وجَلَبَ جَلَبًا، وحَلَبَ حَلَبًا، وغَلَبَ غَلَبًا، فأيُّ حذفٍ في هذا، وهل يجوز أن يُقالَ في أَكَلَ أكْلاً وما أشبَهه: حُذِفَ منه[٢]؟

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حُذِفَتِ الهاءُ من «بِضع» فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في سورة «يوسف»[٣]. وفُتِحَتِ النونُ من «سِنِينَ» لأنه جمعٌ مُسَلَّم. ومن العرب من يقول في «بضع سنين» كما يقول في «غِسلِين». وجاز أن يُجمعَ سنة جَمعَ من يعقِلُ بالواو والنون والياء والنون؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها شيءٌ فجُعِلَ هذا الجمعُ عِوَضاً من النقص الذي في واحده؛ لأنَّ أصل «سنة» سنهة أو سنوة، وكُسِرَتِ السينُ

---

(١) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي بن أبي طالب ﷺ.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩.
(٣) ١١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

منه دلالةً على أنَّ جمعَه خارجٌ عن قياسه ونمطه. هذا قول البصريين. ويلزم الفرَّاءُ أن يضُمَّها؛ لأنه يقول: الضمةُ دليلٌ على الواو وقد حُذِفَ من سنة واوٌ في أحد القولين، ولا يضُمُّها أحدٌ علِمناه(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلَبةٍ وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذه الغلَبةِ ومِنْ بعدِها(٢). وقيل: من قبلِ كلِّ شيءٍ ومن بعد كلِّ شيء(٣). و﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ظرفان بُنيا على الضمِّ، لأنَّهما تعرَّفا بحذفِ ما أُضيفا إليهما، وصارا مُتضمِّنين ما حُذِفَ، فخالفا تعريفَ الأسماء، وأشبَها الحروفَ في التضمين فبُنيا، وخُصَّا بالضمِّ لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأُضيفَ زالَ بناؤه، وكذلك هما فَضُمَّا(٤).

ويقال: «من قبلٍ ومِن بعدٍ»، وحكى الكسائيُّ عن بعضِ بني أسد: «لِلهِ الْأَمْرُ مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضين بغير تنوين، والثاني مضمومٌ بلا تنوين. وحكى الفرَّاء: «مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضتين بغير تنوين. وأنكره النحَّاسُ وردَّه. وقال الفرَّاء في كتابه: في القرآن أشياءُ كثيرة، الغلطُ فيها بيِّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجَّاج: المعنى: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ(٥).

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم ذِكْره. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: من أوليائه؛ لأنَّ نصرةَ مختصٌ بغلبةِ أوليائه لأعدائه، فأمَّا غلَبةُ أعدائِه لأوليائه فليس

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٧٦ .

بنصره، وإنَّما هو ابتلاءٌ، وقد يُسمَّى ظَفَراً. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، وهم أكثر[١]. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب «وَعْدَ اللهِ» على المصدر، أي: وعدَ ذلك وعداً[٢].

ثم بيَّن تعالى مقدار ما يعلمون، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم؛ متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون، وكيف يبنون. قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحَّاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها، وغرس أشجارها. والمعنى واحد. وقيل: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا. قاله سعيد بين جُبير. وقيل: الظاهر والباطن، كما قال في موضعٍ آخر ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٣] [الرعد: ٣٣].

قلتُ: وقولُ ابن عباس أشبَهُ بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغَ ـ واللهِ ـ من علمِ أحدِهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيُخبرك بوزنه ولا يُحسِنُ أن يُصلِّي[٤]. وقال أبو العباس المبرِّد: قسمَ كسرى أيامَه فقال: يَصلح يومُ الريح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للشرب واللهو، ويومُ الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قال بعضهم:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٤) قول الحسن في الوسيط ٣/ ٤٢٨، وزاد المسير ٦/ ٢٨٩.

ومن البليَّة أن ترى لكَ صاحباً   في صورةِ الرجلِ السميعِ المُبصرِ
فَطِنٍ بكلِّ مصيبةٍ في مالِهِ   وإذا يُصابُ بدينهِ لم يَشعُرِ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وليس بمفعول، تعدَّى إليه «يَتَفَكَّرُوا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلقِ أنفسهم، إنما أُمروا أن يستعملوا التفكُّرَ في خلق السماوات والأرض وأنفُسِهم، حتى يعلموا أنَّ الله لم يخلُقِ السماوات وغيرَها إلَّا بالحق[٢]. قال الزجَّاج: في الكلام حذفٌ، أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[٣]. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرَّاء: معناه: إلا للحق، يعني: الثواب والعقاب[٤]. وقيل: إلَّا لإقامة الحق[٥]. وقيل: «بِالْحَقِّ»: بالعدل. وقيل: بالحكمة. والمعنى متقارب[٦]. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي: أنه هو الحقُّ وللحقِّ خلقَها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة[٧]. وفي هذا تنبيهٌ على الفناء، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[٨]. وقيل: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: خَلقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه.

---

(١) نسبهما في بهجة المجالس ٢/ ٨٠١ لعبد الله بن المبارك أو لغيره، ووقع صدر البيت الأول فيه: أُخيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٥ بمعناه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٩، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٢٩ عن مقاتل.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لَكافرون بلقاء ربهم، على التقدير والتأخير، أي: لَكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إنَّ زيداً في الدار لَجالس. ولو قلت: إنَّ زيداً لفي الدار لجالسٌ، جاز. فإن قلتَ: إنَّ زيداً جالسٌ لفي الدار، لم يَجزْ؛ لأنَّ اللامَ إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنَّ وخبرِها، وإذا جئتَ بهما لم يَجُزْ أن تأتي بها. وكذا إن قلتَ: إنَّ زيداً لجالس لفي الدار، لم يَجُزْ[١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة[٢]؛ لأنَّ أهل مكة لم يكونوا أهلَ حرث[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]. ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وعمروها أولئك أكثرَ ممَّا عمروها هؤلاءِ فلم تنفعْهم عمارتُهم ولا طولُ مُدَّتهم. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات. وقيل: بالأحكام، فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حُجَّة. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنَّ الحُسنى تأنيث الأحسن[٤]. وقيل: يعني بها هاهنا النار.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٩٠ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٢١٦ .

قاله ابن عباس[١]. ومعنى «أساؤوا»: أشركوا؛ دلَّ عليه: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. «السُّوءى» اسمُ جهنم، كما أنَّ الحُسنى اسم الجنة[٣]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا. قاله الكسائي[٤]. وقيل: بأن كذبوا[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذُكِّرتْ لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي. و«السُّوءَى» خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. «السوءى» بالرفع اسم كان[٦]. ويجوز أن يكون اسمُها التكذيب[٧]، فيكون التقدير: ثمَّ كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساؤوا[٨]، ويكون السُّوءى مصدرًا لأساؤوا، أو صفةً لمحذوف، أي: الخَلَّة السوءى[٩]. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السوءُ» برفع السوء[١٠]. قال النحّاس: السُّوء أشدُّ الشر، والسُّوءى الفُعلى منه[١١]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمحمدٍ والقرآن. قاله الكلبيُّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزِلَ بهم. الضحَّاك: بمعجزات محمدٍ ﷺ. ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٢].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٨. وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وينظر السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٨.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وهي قراءة شاذة.

(١١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(١٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠١.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء. الباقون بالتاء[١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ «يُبْلَسُ» بفتح اللام[٢]، والمعروف في اللغة: أبلَسَ الرجلُ إذا سكتَ وانقطعت حُجَّتُه، ولم يؤمِّلْ أن تكون له حُجَّة. وقريبٌ منه: تحيَّر؛ كما قال العجَّاج[٣]:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا   قال نعم أعرفُهُ وأبْلَسا

وقد زعمَ بعضُ النَّحْويين أنَّ إبليس مشتَقٌّ من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حُجَّتُه. النحّاس: ولو كان كما قال لوجَبَ أن ينصرِفَ، وهو في القرآن غيرُ منصرف[٤]. وقال الزجّاج[٥]: المُبلِسُ: الساكتُ المُنقطِعُ في حُجَّتِه، اليائسُ من أن يهتدي إليها.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ما عبدوه من دون الله ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلهة[٦]. فتبرَّؤوا منها وتبرَّأت منهم، حسبما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين.

---

(١) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٢) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن السُّلمي وعليٍّ ﷺ.

(٣) في ديوانه ص ٥٦، وسلف ٨/ ٣٨١.

(٤) من بداية الآية إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٧٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧.

ثم بيَّن كيفَ تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال النحَّاس: سمعتُ الزجَّاج يقول معنى «أمّا»: دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره. وكذا قال سيبويه: إنَّ معناها: مهما يَكُنْ من[1] شيءٍ فخُذْ في غير ما كُنَّا فيه. ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحَّاك: الروضة: الجنة، والرِّياض: الجِنان. وقال أبو عبيد: الروضةُ: ما كان في تَسفُّلٍ، فإذا كانت مرتفعةً فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسَنُ ما تكون الروضةُ إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظ، كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يوماً بأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ جَنا الأُصُلُ[2]

إلا أنه لا يُقال لها: روضة، إلَّا إذا كان فيها نبتٌ، فإن لم يكن فيها نبتٌ وكانت مرتفعةً فهي تُرعة. وقد قيلَ في التُّرعة غيرُ هذا[3]. وقال القُشَيْرِيُّ: والروضةُ عند العرب: ما ينبتُ حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيءٌ أحسنَ منه. الجوهريُّ: والجمع روْضٌ ورِياض، صارتِ الواوُ ياءً لكسرِ ما قبلها. والرَّوض: نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضةٌ من ماءٍ إذا غطَّى أسفله[4]. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) في (م): كنا في، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن.

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٧ . الحَزْن: ما غلظ من الأرض في ارتفاع. يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حُسنٌ له ونضرة. والكوكب: معظم النبات. والشَّرِق: الريَّان الممتلئ ماءً. والمؤزَّر: الذي صار النبات كالإزار له. والعميم: النبات الكثيف الحسن. والمكتهِل من اكتهل: إذا تمَّ طوله. والنشر: الريح الطيبة. والأُصُل جمع أصيل: وهو الوقت بعد العصر حتى المغرب. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٥ و٦/ ١٩ و١١/ ٣٣٨ ، والصحاح (أصل).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧ . والأبيات ذكرها الماوردي أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ .

(٤) الصحاح (روض).

ورَوْضـةٍ سَقَـيْتُ مـنـهـا نِضْـوَتـي[١].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكْرَمون. وقيل: يُنعَّمون. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: يُسَرُّون. السُّدِّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح. ذكره الماوردي[٢]. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور، ويقال: حبرَه يحبُره ـ بالضمّ ـ حَبْراً وحَبَرَةً؛ قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يُنعَّمون ويُكرَمون ويُسَرُّون. ورجلٌ يَحْبُور يَفْعول من الحبور[٣]. النحَّاس: وحكى الكسائيُّ: حَبَرْتُه أي: أكرمتُه ونعَّمتُه، وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: وهو مشتَقٌّ من قولهم: على أسنانه حَبْرةٌ، أي: أثر، فـ«يُحبرون» يَتَبَيَّن عليهم أثر النعيم. والْحَبْرُ مشتقٌّ من هذا[٤]. قال الشاعر:

لا تـمـلأِ الـدّلْـوَ وعَـرِّقْ فـيـهـا[٥] أمـا تَـرَى حَـبـارَ مَـن يَـسْـقـيـهـا

وقيل: أصله من التَّحبير: وهو التَّحسين، فـ«يُحبَرُونَ»: يُحسَّنون[٦]. يقال: فلانٌ حَسَنُ الحِبْرِ والسِّبْرِ إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة. ويُقال أيضاً: فلانٌ حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ بالفتح، وهذا كأنه مصدرُ قولِك: حَبَرْتُه حَبراً إذا حسَّنته. والأوَّل اسمٌ؛ ومنه الحديث: «يخرج رجلٌ من النار ذهبَ حِبْرُه وسِبْرُه»[٧]. وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ قال: السَّماع في الجنة. وقاله الأوزاعِيُّ؛ قال: إذا أخذَ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلَّا رَدَّدَتِ الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال

(١) قائله هميان كما في تاج العروس (روض). والنِّضوة: هي الناقة المهزولة، مذكرها نِضو. الصحاح (نضو).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٢، دون قوله: وقيل: يُسرُّون، فقد ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٣) الصحاح (حبر).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) أي: اجعل فيها دون الملء. الصحاح (عرق).

(٦) سلف هذا المعنى ٧/ ٤٩٥.

(٧) تهذيب اللغة ٥/ ٣٢ - ٣٣. والحديث أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٥.

الأوزاعِيُّ: ليسَ أحدٌ من خَلْقِ الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطعَ على أهل سبع سماواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم[١]. زاد غير الأوزاعِيّ: ولم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت، ولم يبقَ سِترٌ ولا بابٌ إلا ارتَجَّ وانفتح، ولم تبقَ حلقةٌ إلا طنَّتْ بألوان طنينها، ولم تبقَ أجَمَةٌ من آجام الذهب إلَّا وقع أُهبوبُ الصوت في مقاصبها، فَزَمَرت تلك المقاصبُ بفنون الزمر، ولم تبقَ جاريةٌ من جواري الحورِ العينِ إلَّا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويُوحي اللهُ تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعَهم عن مزامير الشيطان، فيُجابون بألحانٍ وأصواتٍ روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصيرُ رجَّةً واحدة، ثم يقول الله جَلَّ ذِكْرُه: يا داودُ قُمْ عند ساقِ عرشي فمجِّدْني. فيندفع داودُ بتمجيد ربِّه بصوتٍ يغمرُ الأصواتَ ويُجليها، وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيُّ الحكيم رحمه الله[٢]. وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ كان يُذكِّر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي أُخريات القوم أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابِيُّ، إنَّ في الجنة لَنهراً حافَتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خِمصانية يتغَنَّيْنَ بأصواتٍ لم تَسمعِ الخلائقُ بمثلها قطُّ، فذلك أفضلُ نعيم الجنة» فسأل رجلٌ أبا الدَّرداء: بماذا يتغَنَّينَ؟ فقال: بالتسبيح. والخِمصانية: المُرهَفَةُ الأعلى، الخِمصانةُ البطن، الضخمةُ الأسفل[٣].

قلت: وهذا كلُّه من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارضَ بين تلك الأقوال.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٩ .

(٢) لم نقف عليه في القسم المطبوع من نوادر الأصول.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣١ - ٣٣٢ من طريق سليمان بن عطاء ، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال ابن حبان: سليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله.

وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] على ما يأتي. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»[١]. وقد رُوِي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السماعَ بعثَ اللهُ ريحاً من تحت العرش فتقعُ في تلك الأشجار، فتُحرِّكُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمِعَها أهلُ الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشريّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تقدّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: مُعذَّبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨] أي: نزَل به. قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيه ثلاثة أقوال: الأوّل ـ أنه خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة في هذه الأوقات[٤]. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن. قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ

(١) سلف ١/ ١٢٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، وفيه أن قول ابن شجرة: يقيمون.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[(١)]. وقاله الضحَّاك وسعيد بن جُبير[(٢)]. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أنَّ الآية تنبيهٌ على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آيةٍ أخرى في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وفي ذكر أوقات العورة[(٣)]. وقال النحَّاس: أهل التفسير على أنَّ هذه الآية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: حقيقتُه عندي: فسبِّحوا اللهَ في الصَّلوات؛ لأنَّ التسبيحَ يكون في الصلاة. وهو القول الثاني[(٤)]. والقول الثالث ـ فسبِّحوا الله حين تُمسون وحين تُصبحون. ذكره الماورديُّ، وذكر القولَ الأوّل، ولفظه فيه: فصلُّوا للهِ حين تُمسون وحين تُصبحون[(٥)]. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لِما تضمَّنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذٌ من السُّبحة، والسُّبحة: الصلاة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «تكون لهم سبحةً يوم القيامة» أي صلاةً[(٦)].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمِه وآلائه. وقيل: معنى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: الصلاةُ له؛

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٢)، والطبري ١٨/ ٤٧٤، والطبري (١٠٥٩٦)، والحاكم ٢/ ٤١٠ - ٤١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) لم نقف على هذا الكلام عند الماوردي في النكت والعيون ولا عند أحد ممَّن ينقل عنه. وقد ذكر ابن الجوزي الكلام الأخير في زاد المسير ٦/ ٢٩٣ من غير نسبة.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣. والحديث لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد معنى السُّبحة أنها الصلاة في أحاديث عدة منها ما أخرجه أحمد (٢٤٥٥٩)، والبخاري (١١٧٧) ومسلم (٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى، وإني لأُسبِّحها. ومنها ما أخرجه أحمد (١٢٤٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ سُبحة الضحى ثمان ركعات.

لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوَّل أظهر؛ فإنَّ الحمدَ لله من نوع التعظيم لله تعالى والحضّ على عبادته ودوام نعمته، فيكون نوعاً آخرَ خلافَ الصلاة، والله أعلم[١].

وبدأ بصلاة المغرب؛ لأنَّ الليلَ يتقدَّم النهار. وفي سورة «سبحان» بدأ بصلاة الظهر؛ إذ هي أوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريل بالنبيِّ ﷺ. قال الماورديُّ[٢]: وخصَّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاةَ النهار باسم الحمد؛ لأنَّ للإنسان في النهار متقلَّباً في أحوالٍ تُوجِبُ حمدَ الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوةٍ تُوجِبُ تنزيهَ الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صارَ الحمدُ بالنهار أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ النهار، والتسبيحُ بالليل أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ الليل.

الثالثة ـ قرأ عكرمة: «حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ» والمعنى: حيناً تُمسون فيه وحيناً تُصبحون فيه؛ فحذف «فيه» تخفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨][٣]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريُّ: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيتُه عشِيَةَ أمسِ وعَشِيَّ أمسِ. وتصغير العَشِيِّ: عُشَيَّان، على غير [قياسِ] مُكَبَّرِه، كأنهم صغَّروا عَشْيَانًا، والجمع عُشَيَّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاءُ ـ بالكسر والمدِّ ـ مثلُ العَشِيّ. والعِشاءان المغربُ والعَتْمة. وزعم قومٌ أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غدونا غدوةً سَحَراً بليلٍ عِشاءً بعد ما انتصفَ النهارُ[٤]

الماورديُّ[٥]: والفرقُ بين المساء والعِشاء: أنَّ المساءَ بُدُوُّ الظلام بعد المغيب،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٧، وينظر إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨، وقراءة عكرمة في المحتسب ٢/ ١٦٣، والشاذة ص ١١٦.

(٤) الصحاح (عشا)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٤.

والعِشاءَ آخرُ النهار عند ميل الشمس للمغِيب، وهو مأخوذٌ من عشا العين: وهو نقصُ النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيَّن كمالَ قدرته؛ أي: كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يُحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى في «آل عمران»[١] بيانُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: من علامات رُبُوبيَّتِهِ ووَحْدانيَّته أنْ خلقكم من تراب[٢]، أي: خلقَ أباكم منه، والفرع كالأصل، وقد مضى بيانُ هذا في «الأنعام»[٣]. و«أنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم

(١) ٥/٨٦ - ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨١.

(٣) ٨/٣١٨.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[(١)].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما هو قِوامُ معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثًا، ومن قَدَر على هذا فهو أهلٌ للعبادة والتسبيح.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: نساءً تسكنون إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من نِطَفِ الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوَّاء، خلقها من ضِلَع آدم. قاله قتادة[(٢)]. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودَّة: الجماع، والرحمة: الولد. وقاله الحسن. وقيل: المودَّة والرحمة عَطْفُ قلوبِهم بعضِهم على بعض[(٣)]. وقال السُّدِّي: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقة[(٤)]. ورُوي معناه عن ابن عباس قال: المودَّةُ: حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمة: رحمتُه إيَّاها أن يُصيبَها بسوء[(٥)]. ويُقال: إنَّ الرجل أصلُه من الأرض، وفيه قوَّةُ الأرض، وفيه الفَرْجُ الذي منه بُدئ خَلْقُه، فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقتِ المرأةُ سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ فأوَّلُ ارتفاقِ الرجل بالمرأة سكونُه إليها مما فيه من غليَان القوَّة، وذلك أنَّ الفرجَ إذا تُحمِّلَ فيه هيَّجَ ماءَ الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهنَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦] فأعلمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرجالَ أنَّ ذلك الموضعَ خُلِقَ منهنَّ للرجال، فعليها بذلُه في كلِّ وقتٍ يدعوها الزوج، فإن منعَتْه فهي ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال:

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٢) مجمع البيان ٢١/ ١٩ ، وقول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ ، وذكر القول الأول عن مجاهد، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ عن مجاهد والحسن وعكرمة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ ، ومجمع البيان ٢١/ ١٩ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلَّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»[١]. وفي لفظٍ آخر: «إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصبح»[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٣] وكانوا يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ اللِّسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكادُ ترى أحداً إلا وأنتَ تُفرِّقُ بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بُدَّ من فاعل، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو الله تعالى، فهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على المدبِّر البارئ[٤]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي للبَرِّ والفاجر[٥]. وقرأ حفص: «للعالِمِينَ» بكسر اللام، جمع عالِم[٦].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير[٧]، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذِفَ حرفُ الجرِّ لاتصاله بالليل وعَطْفِه عليه، والواو تقوم مقامَ حرف الجرِّ إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصةً، فجُعلَ النومُ بالليل دليلاً على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر[٨].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (٢١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٣٦) : (٢٠)، وأخرجه أحمد (١٠٩٤٦)، والبخاري (٥١٩٤)، وقد سلف ٢٨٣/٦ .

(٣) ٣٧٦/١ فما بعدها.

(٤) إعراب القرآن ٢٦٩/٣ .

(٥) زاد المسير ٣٩٨/٥ عن ابن عباس رضي الله عنه عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٦) السبعة ص ٥٠٦ ، والتيسير ص ١٧٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٣٣٣/٤ .

(٨) تفسير البغوي ٤٨١/٣ .

وقيل: يسمعون الحقَّ فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيُصدِّقونه. والمعنى متقارب[١]. وقيل: كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضرٌ سَدَّ أذنيه حتى لا يسمع، فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الدلائل عليه[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى: أن يُريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

ألَا أيُّهذا اللائِمي أحْضُرُ الوَغَى وأنْ أشْهَدَ اللّذَاتِ هل أنت مُخْلِدي[٣]

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: ويُريكم البرقَ من آياته. وقيل: أي: ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق، كما قال الشاعر:

وما الدَّهرُ إلّا تارتانِ فمنهما أموتُ وأخْرَى أبتغي العيشَ أكْدَحُ[٤]

وقيل: أي: من آياته أنه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياته. قاله الزجّاج[٥]، فيكون عطفَ جملةٍ على جملة. ﴿خَوْفًا﴾ أي: للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم. قاله قتادة. الضحّاك: «خَوْفًا» من الصواعق، «وَطَمَعًا» في الغيث. يحيى بن سلام: «خَوْفًا» من البرد أن يُهلِكَ الزرعَ، «وَطَمَعًا» في المطر أن يُحييَ الزرعَ. ابن بحر: «خَوْفًا» أن يكون البرقُ بَرْقًا خُلَّبًا لا يُمطر، «وَطَمَعًا» أن يكون ممطراً، وأنشد قولَ الشاعر:

لا يكُنْ بَرْقُكَ برقًا خُلَّبا إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه[٦]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ دون قوله: فحذف حرف الجر ... إلى قوله: خاصةً. ودون قوله: يريد سماع تفهم وتدبر.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) البيان ٢/ ٢٥٠ . والبيت في ديوان طرفة ص ٣٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ – ٢٥٤ . والبيت قائله تميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٢ ، والعبارة التي بعده منه.

(٦) نسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي كما في عيون الأخبار ص ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ٣/ ١٥٦ ، ونسب إلى عبد الله بن كريز كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٠ ، ونسب إلى أنس بن زنيم كما في خزانة الأدب ٦/ ٤٧١ .

وقال آخر:

فقد أرِدُ المياهَ بغير زادِ ... سوى عَدِّي لها برقَ الغمامِ[(١)]

والبرقُ الخُلَّبُ: الذي لا غيثَ فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجز: إنما أنت كبرقٍ خُلَّب. والخُلَّب أيضاً: السحابُ الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلَّبٍ، بالإضافة[(٢)]. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ «أنْ» في محلِّ رفعٍ كما تقدم، أي: قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد[(٣)]. وقيل: بتدبيره وحكمته، أي: يمسكها بغير عمدٍ لمنافع الخلق. وقيل: «بأمرِهِ» بإذنه. والمعنى واحد[(٤)]. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: الذي فعلَ هذه الأشياء قادرٌ على أن يبعثكم من قبوركم[(٥)]، والمرادُ سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقُّفٍ ولا تلبُّث؛ كما يُجيبُ الداعي المطاعَ مَدْعُوُّهُ، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمِهِ فكأنَّما ... دعوتُ برأسِ الطَّودِ أو هو أسرعُ

يريد برأس الطود: الصَّدى، أو الحجرَ إذا تَدَهْدَه. وإنما عطفَ هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثمَّ» لِعِظَمِ ما يكون من ذلك الأمر واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقَى نسمةٌ من الأوَّلين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. و«إذا» الأولى في

---

(١) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ١٤٣، وفيه: «هاد» بدل «زاد». ومن قوله: ﴿خوفاً﴾.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) الصحاح (خلب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوبُ منابَ الفاء في جواب الشرط[(١)]. وأجمع القرَّاء على فتح التاء هنا في «تَخْرُجُونَ»، واختلفوا في التي في «الأعراف» [الآية: ٢٥] فقرأ أهل المدينة: «ومنها تُخرجون» بضمِّ التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد، والمعنيان متقاربان، إلَّا أنَّ أهل المدينة فرَّقوا بينهما لِنَسقِ الكلام، فنَسَقُ الكلام في التي في «الأعراف» بالضمِّ أشبه؛ إذ كان الموتُ ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبَهُ بنَسقِ الكلام، أي: إذا دعاكم خرجتُم، أي: أطعمتم؛ فالفِعْلُ [بهم] أشبه[(٢)]. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة[(٣)]، على ما تقدَّم ويأتي. وقُرِئ: «تخرجون» بضمِّ التاء وفتحِها، ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[(٤)] ولم يزِدْ على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعة». قال النحَّاس: مطيعون طاعة انقياد[(٥)]. وقيل: «قَانِتُونَ» مُقِرُّون بالعبودية، إما قالةً وإما دِلالةً. قاله عِكرمة وأبو مالك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: «قَانِتُونَ»: مُصلُّون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: قائمٌ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠ ، وما بين حاصرتين منه. وينظر النشر ٢/ ٢٠٧ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٩٦ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠ ، والحديث أخرجه - بهذا اللفظ - الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، به.
وأخرجه أحمد (١١٧١١) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، به. بلفظ: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». رشدين وابن لهيعة ضعيفان، وكذلك دراج أبو السمح في روايته عن أبي الهيثم العتواري. قلنا: وقد رُوي هذا من كلام قتادة فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١١٦ .

[المطففين: ٦] أي: للحساب. الحسن: كلٌّ له قائمٌ بالشهادة أنه عبدٌ له. سعيد بن جُبير. «قَانِتُونَ»: مخلصون[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمَّا بدْءُ خلقِه فبِعُلوقه في الرَّحمِ قبل ولادته، وأمَّا إعادتُه فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقِه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٢]. وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يُبْدِئُ الخَلْقَ»[٣] من أبدأ يُبدئ؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]. ودليلُ قراءة العامَّة قولُه سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. و«أَهْوَنُ» بمعنى هيِّن، أي: الإعادةُ هيِّنٌ عليه. قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن[٤]. فأهونُ بمعنى هيِّن؛ لأنه ليس شيءٌ أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومَنْ جعلَ أهونَ يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيءٍ فقولُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠] وبقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والعرب تحمِلُ أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق[٥]:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائِمُه أعزُّ وأطوَلُ

أي: دعائمه عزيزةٌ طويلة. وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أوَّلُ[٦]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة شاذة لم نقف عليها إلا عند المصنف.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس والربيع، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن الربيع وقتادة والكلبي. وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ عن الحسن وقتادة.

(٥) في ديوانه ص ٧١٤.

(٦) قائله معن بن أوس المزني، وهو في الكامل ٢/ ٧٥٠، والحماسة البصرية ٢/ ٧، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥.

أراد: إني لوَجِلٌ. وأنشد أبو عبيدةَ أيضاً:

إني لأمْنَحُكَ الصُّدودَ وإنَّني قَسَمًا إليكَ مع الصُّدود لَأَمْيَلُ[1]

أراد: لَمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَمنَّى رجالٌ أن أموتَ وإن أمُتْ فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَدِ[2]

أراد: بواحد. وقال آخر:

لَعمرُكَ إنَّ الزِّبرقانَ لَباذلٌ لمعروفهِ عند السنينَ وأفضَلُ[3]

أي: وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر، إنما معناه: الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وهو عليه هيِّن»[4]. وقال مجاهد وعكرمة والضحَّاك: إنَّ المعنى أن الإعادة أهونُ عليه ـ أي: على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعُه على الله تعالى هيناً. وقاله ابن عباس[5]. ووجهُه أنَّ هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهوَنُ من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعثُ لمن قدَرَ على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين، أي: هو أهوَنُ عليه، أي: على الخلق، يُصاح بهم صيحةً واحدةً فيقومون ويُقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهوَنُ عليهم من أن

(١) إلى هذا الموضع من مجاز القرآن ٢/ ١٢١ - ١٢٢ ، وهذا البيت قائله الأحوص بن محمد الأنصاري، وهو في كتاب سيبويه ١/ ٣٨٠ ، وخزانة الأدب ٢/ ٤٨ .

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري ٢٤/ ٤٧٨ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ إلى طرفة، وذكر أن الشافعي رحمه الله تمثل به عندما دعا عليه أشهب بالموت. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القين.

(٣) ذكره الطبري ١٨/ ٤٨٧ من غير نسبة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦ ، ووقع فيه وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ : «وهو هينٌ عليه». وأخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ بمثل ما أثبتناه، وهي قراءة شاذة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن مجاهد وعكرمة، وزاد المسير ٦/ ٢٩٧ عن مجاهد وأبي العالية.

يكونوا نُطَفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم أجِنَّةً، ثم أطفالاً، ثم غلماناً، ثم شُبَّاناً، ثم رجالاً أو نساءً. وقاله ابن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون: أسهل[(١)]؛ قال:

وهانَ على أسماءَ أن شطَّتِ النَّوَى يَحِنُّ إليها والِهٌ ويتوقُ

أي: سهلٌ عليها. وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيءٌ على الله بعزيز[(٢)]. عِكرمة: تعجَّبَ الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية[(٣)]. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: ما أراده جلَّ وعزَّ كان. وقال الخليل: المثلُ: الصفة[(٤)]، أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] أي: صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قولُ: لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي: الذي له الوصفُ الأعلى، أي: الأرفع الذي هو الوصف بالواحدانية. وكذا قال قتادة: إنَّ المثلَ الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] على ما نُبيِّنُه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجَّاج: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربَه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوّل[(٥)]. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء[(٦)] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[(٧)].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٠ ، والبيت قائله عمرو بن الأهتم كما في المفضليات ص ١٢٥ ، وقول الربيع أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٦ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢١ دون قول قتادة، وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٧) ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ ثم قال: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فـ«من» الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذَ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام(١). والآيةُ نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيكَ لا شريكَ لك، إلّا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَكَ. قاله سعيد بن جُبير(٢). وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَه الله للمشركين، والمعنى: هل يرضى أحدُكم أن يكون مملُوكه في ماله ونفسه مِثلَه، فإذا لم ترضَوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء(٣)؟!

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصلٌ في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليسَ عبيدُنا شركاءَنا فيما رزقتَنا. فيُقال لهم: فكيف يُتصوَّرُ أن تُنزِّهوا نفوسَكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقِلةُ نظرٍ وعَمَى قلب! فإذا بطلتِ الشركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادةُ - والخلقُ كلُّهم عبيدٌ لله تعالى - فيبطل أن يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلّا أنه واحدٌ يستحيلُ أن يكون له شريك، إذِ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل، والقديمُ الأزليُّ منزَّهٌ عن ذلك جَلَّ وعزَّ.

(١) الكشاف ٣/ ٢٢١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ ، والطبري ١٨/ ٤٩٠ .

وهذه المسألة أفضلُ للطالب من حفظ ديوانٍ كاملٍ في الفقه؛ لأنَّ جميعَ العبادات البدنية لا تصِحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ لمَّا قامتْ عليهم الحُجَّةُ ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لا هاديَ لمن أضلَّه اللهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ قال الزجّاج: «فِطْرَةَ» منصوبٌ بمعنى: اتَّبِعْ فطرةَ الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ الحنيفَ واتَّبِعْ فطرةَ الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر من معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطرَ اللهُ الناس على ذلك فِطرةً. وقيل: معنى ذلك: اتَّبعوا دينَ الله الذي خَلَقَ الناسَ له، وعلى هذا القول يكون الوقفُ على «حَنِيفًا» تامًّا. وعلى القولين الأوَّلين يكون متَّصلاً، فلا يُوقَفُ على «حنيفاً». وسُمِّيتِ الفِطْرَةُ دِيناً لأن الناسَ يُخلَقون له قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ويقال: «عَلَيْهَا» بمعنى لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾[1] [الإسراء: ٧]. والخطاب بـ «أَقِمْ وَجْهَكَ» للنبيِّ ﷺ، أمرَه بإقامة وجهه للدِّين المستقيم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وهو دين الإسلام.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ دون قوله: وعلى هذا القول يكون الوقف.. إلى قوله: فلا يوقف على «حنيفاً». وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤، وقول الطبري في تفسيره ١٨/ ٤٩٣.

وإقامة الوجه هو تقويمُ المقصد، والقوَّة على الجِدِّ في أعمال الدين .وخصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أُمَّتُه باتِّفاقٍ من أهل التأويل. و«حَنِيفًا» معناه: معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة[١].

الثانية ـ في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرة ـ في رواية: على هذه الملة ـ فأبواه يُهوِّدانه وينَصِّرانه ويُمَجِّسَانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٢]. في رواية: «حتى تكونوا أنتم تجدعونَها» قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَنْ يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين». لفظ مسلم[٣].

الثالثة ـ واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة، منها الإسلام. قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرُهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامَّة السلف من أهل التأويل، واحتجُّوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألَا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ في كتابه، أنَّ الله خلق آدمَ وبَنيه حُنفاءَ مسلمين، وأعطاهمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيه، فجعلوا ممَّا أعطاهم اللهُ حلالاً وحراماً...» الحديث[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦ .

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٢). وهو في مسند أحمد (٧٧١٢). ورواية: «على الملة» في صحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٣) ، وهي في مسند أحمد (٧٤٤٣). وقد سلف بعضه ١٤٨/٧ .

(٣) في صحيحه (٢٦٥٨) : (٢٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٧٨) ، والطبراني ١٧/ (٩٩٧) ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٣ من طريق محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عياض بن حمار ﷺ، به. محمد بن إسحاق مدلس، وقد رواه بالعنعنة. وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤) ، ومسلم (٢٨٦٥) بغير هذا السياق.

وبقوله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة..»[١] فذكر منها قصَّ الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أنَّ الطفل خُلِقَ سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار. وقال آخرون: الفطرةُ: هي البداءةُ التي ابتدأهم الله عليها، أي: على ما فطرَ اللهُ عليه خَلْقَه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ. واحتجُّوا بما رُويَ عن ابن عباس أنه قال: لم أكُنْ أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُها. قال الْمَرْوَزِيُّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب «التمهيد» له: ما رسمَه مالكٌ في «موطَّئه»[٢] وذكرَ في أبواب[٣] القدر فيه من الآثار يَدلُّ على أنَّ مذهبَه في ذلك نحوُ هذا، والله أعلم. ومما احتجُّوا به ما رُوِيَ عن [محمد بن][٤] كعب القُرَظيِّ في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال: مَنِ ابتدأَ اللهُ خلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمِلَ بأعمال الهدى، ومَنِ ابتدأَ اللهُ خَلْقَه على الهدى صيَّره إلى الهدى وإن عمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأَ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ خَلْقَه،[٥] قال: وكان من الكافرين.

---

(١) وقد سلف ٢/ ٣٦٣.

(٢) ٢/ ٨٩٨ - ٩٠١.

(٣) في (م): باب، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) ما بين حاصرتين من المصادر، وهو ليس في النسخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٦٧)، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي. موسى بن عبيدة ضعيف فيما قال ابن حجر في التقريب. والكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من التمهيد ١٨/ ٦٦ و٧٢ و٧٣ و٧٦ - ٨٠.

قلت: قد مضى قول [محمد بن] كعب هذا في «الأعراف»(١)، وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة غلامٍ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكْه. قال: «أوَغيرَ ذلكَ يا عائشة، إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»(٢). وخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تُخبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن(٣).

وقالت فرقةٌ: ليس المراد بقولِه تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ولا قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» العمومَ، وإنما المرادُ بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطِرَ الجميعُ على الإسلام لَمَا كفر أحد، وقد ثبت أنه خلقَ أقواماً للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٧٩] وأخرجَ الذُّرِّيَةَ من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر: طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً(٤). وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال:

(١) ٩/ ١٩١، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٢)، وأخرجه أحمد (٢٥٤٧٢)، ومسلم (٢٦٦٢): (٣١).

(٣) سنن الترمذي (٢١٤١)، وهو في مسند أحمد (٦٥٦٣)، وفي إسناده أبو قبيل حيي بن هانئ المعافري، وهو مختلف فيه، وضعفه الحافظ في تعجيل المنفعة ص ٢٧٧، وذكر أنه كان يكثر النقل عن الكتب القديمة.

(٤) التمهيد ١٨/ ٥٩ و٦١ دون قوله: إذ لو فطر... إلى قوله: سوداء وبيضاء.

«ألَا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى، فمنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَنُ القضاء حَسَنُ الطلب». ذكره حماد بن زيد قال(١): حدثنا عليُّ بن زيد، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد(٢). قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثيرٌ في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولم تدمِّرِ السماواتِ والأرض، وقولِهِ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة(٣). وقال إسحاق بن رَاهَوَيه الحنظلي: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي: فطَرَ اللهُ الخلقَ فِطرةً إمَّا بجنةٍ أو نار، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس(٤): من قال: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، فهذا إنَّما يليقُ بالفِطرةِ المذكورةِ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنَّه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تُبدَّلُ وتُغيَّر.

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرةُ: هي الخِلقةُ التي خُلِقَ عليها المولودُ في المعرفة بربِّه، فكأنه قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على خِلْقةٍ يعرِفُ بها ربَّه إذا بلغَ مبلَغَ المعرفة؛ يريد خِلقةً مخالفةً لخِلقة البهائم التي لا تصِلُ بخلقتها إلى معرفته، واحتجُّوا على أنَّ الفِطرةَ الخِلقةُ، والفاطِرَ الخالقُ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

---

(١) المثبت من (ز). وفي (ظ): ذكره حماد بن زيد كذا قال. وفي (د): ذكره حماد بن أسلم الطيالسي قال: وفي (م): ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال.

(٢) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٢١٩١) من طريق حماد بن زيد، به.

وأخرجه أحمد (١١١٤٣) والطيالسي (٢١٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به. علي بن زيد: هو ابن جدعان، وهو ضعيف، وقد تكلم فيه شعبة كما سيذكر المصنف.

(٣) التمهيد ١٨/ ٦٢.

(٤) في المفهم ١/ ٦٧٥ - ٦٧٦.

وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يعني: خالقهنَّ، وبقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] يعني: خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] يعني: خلقهنَّ. قالوا: فالفطرةُ: الخِلقَةُ، والفاطرُ الخالق، وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَرُ على كفرٍ أو إيمانٍ أو معرفةٍ أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنيةً ليس معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفرَ والإيمانَ بعد البلوغ إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بهيمةً جَمعاءَ - يعني سالمة - هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعةَ الأذن. فمثَّلَ قلوبَ بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولَدُ كاملةَ الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تُقطَعُ آذانُها بعدُ وأنوفُها، فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفرٌ ولا إيمان، ولا معرفةٌ ولا إنكار، كالبهائم السائمة، فلمَّا بلغوا استهوتهم الشياطينُ فكفر أكثرهم، وعصمَ اللهُ أقلَّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوَّليَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نَجِدُهم يؤمنون ثم يكفرون [ويكفرون ثم يؤمنون]. قالوا: ويستحيلُ في المعقول أن يكون الطفلُ في حين ولادته يعقلُ كفراً أو إيماناً؛ لأنَّ الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] فمَنْ لا يعلمُ شيئاً استحالَ منه كفرٌ أو إيمان، أو معرفةٌ أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصَحُّ ما قيل في معنى الفطرة التي يولَدُ الناسُ عليها. ومن الحجَّة أيضاً في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن لم يبلُغْ وقتَ العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولمَّا أجمعوا على دفعِ القَوَد والقصاصِ والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك، والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأنَّ الإسلام والإيمان: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدومٌ من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل.

وأما قول الأوزاعي: سألتُ الزهرِيَّ عن رجلٍ عليه رَقَبَةٌ أيُجزِئُ عنه الصبيُّ أن يَعتِقَه وهو رضيع؟ قال: نعم؛ لأنه وُلِدَ على الفِطرة يعني الإسلام، فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأنَّ حُكمَه حُكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزِي في الرقابِ الواجبةِ إلَّا مَنْ صام وصلَّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولا في «أن يختمَ اللهُ للعبد بما قضاه له وقدَّره عليه» دليلٌ على أنَّ الطفل يولَدُ حين يولَدُ مؤمناً أو كافراً؛ لِما شهدتْ له العقولُ أنه في ذلك الوقت ليس ممَّن يعقِلُ إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أنَّ الناس خُلِقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مَطعنَ فيها؛ لأنَّه انفرد به عليُّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلَّم فيه، على أنه يحتمل قوله: «يولَدُ مؤمناً» أي: يُولَدَ ليكون مؤمناً، ويُولَدَ ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث: «خلقتُ هؤلاء للجنة، وخلقتُ هؤلاء للنار» أكثرَ من مراعاة ما يُختَمُ به لهم، لا أنهم في حين طفولتهم ممَّن يستحِقُّ جنةً أو ناراً، أو يعقِلُ كفراً أو إيماناً[١].

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتجَّ له ذهبَ غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، منهم ابن عطية في «تفسيره» في معنى الفطرة، وشيخُنا أبو العباس؛ قال ابن عطية[٢]: والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقةُ والهيئةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّةٌ ومهيَّأةٌ لِأَنْ يُميِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، ويستدِلَّ بها على ربِّه، ويعرفَ شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقِمْ وجهَك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرةُ الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكْرُ الأبوين إنما هو مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته[٣]: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوب بني آدم

(١) التمهيد ١٨/٦٨ و٧٠ و٧١ و٧٦ و٧٧ و٨٢ و٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/٣٣٦.

(٣) في المفهم ١/٦٧٦.

مؤهَّلَةً لقبول الحق، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامَتْ باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلَّ على هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تَلِدُ ولدَها كاملَ الخِلْقةِ سليماً من الآفات، فلو تُرِكَ على أصل تلك الخِلْقةِ لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتُجدَعُ أذنُه ويُوسَمُ وجهُه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائصُ فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأوَّل موافقٌ له في المعنى، وأنَّ ذلك بعد الإدراك حين عقَلوا أمر الدنيا، وتأكَّدت حُجَّةُ الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبرِّ والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عمِلَتْ أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعَتْهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً في الجنة، أعني جميعَ الأطفال؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا أخرجَ ذريةَ آدمَ من صلبه في صورة الذَّرِّ أقرُّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم أعادهم في صُلبِ آدم بعد أن أقرُّوا له بالرُّبوبية، وأنه اللهُ لا إله غيرُه، ثم يُكتَبُ العبدُ في بطن أمِّه شقِيًّا أو سعيداً على الكتاب الأوَّل، فمن كان في الكتاب الأوَّل شقيًّا عُمِّرَ حتى يجري عليه القلمُ، فينقضَ الميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوَّلِ سعيداً عُمِّر حتى يجري عليه القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومن ماتَ صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلمُ فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فماتَ قبل أن يجري عليه القلم، فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أُخِذَ عليهم في صُلب آدم ولم ينقُضِ الميثاق. ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئِلَ عن أولاد

المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[١] يعني: لو بلغوا.

ودلَّ على هذا التأويل أيضاً حديثُ البخاريِّ[٢] عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبي ﷺ... الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأمَّا الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإبراهيمُ عليه السلام، وأما الوِلدانُ حولَه فكلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة». قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشركين». وهذا نصٌّ يرفع الخلاف، وهو أصحُّ شيءٍ رُوي في هذا الباب، وغيرُه من الأحاديث فيها عِلَلٌ وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء. قاله أبو عمر بن عبد البر[٣]. وقد رُويَ من حديث أنس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «لم تكُنْ لهم حسناتٌ فيُجْزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئاتٌ فيُعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خَدَمٌ لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلاَّم في التفسير له[٤]. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة»[٥]، وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدَّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مواتياً أو متقارباً - أو كلمة تشبه هاتين - حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرتُه لابن المبارك، فقال: أيسكتُ الإنسانُ على الجهل؟ قلتُ: فتأمرُ بالكلام؟ قال: فسكت[٦]. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣٤)، والبخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٣٢٥)، والبخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في صحيحه (٧٠٤٧)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٤)، وقد سلف بعضه ٣٤٩/٢.

(٣) في التمهيد ١١٨/١٨ و١٣٠.

(٤) وأخرجه الطيالسي (٢١١١)، وأبو نعيم في الحلية ٣٠٨/٦ من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس ﷺ، به. يزيد الرقاشي: هو ابن أبان، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٤١٨/٤ - ٤١٩.

(٥) ص ٥١١ - ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣١/١٨.

عَلَيۡهَاۚ﴾: هي الفقر والفاقة. وهذا حسن؛ فإنه منذُ وُلِدَ إلى حين يموت فقيرٌ محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هذه الفطرةُ لا تبديلَ لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمرُ على خلاف هذا بوجه، أي: لا يشقى مَنْ خَلَقَه سعيداً، ولا يسعَدُ مَنْ خَلَقَه شقيًّا. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديلَ لدين الله. وقاله قتادة وابن جُبير والضحَّاك وابن زيد والنَّخعيّ؛ قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: ورُوي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أنَّ المعنى: لا تغييرَ لخلق الله من البهائم أن تُخصى فحولُها، فيكون معناه النهيَ عن خِصاء الفحول من الحيوان[1]. وقد مضى هذا في «النساء»[2]. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: ذلك القضاء المستقيم. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحسابُ البيِّن[3]. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: دينُ الإسلام هو الدينُ القيِّمُ المستقيم[4]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيعلمون أنَّ لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حُكمُه.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ اختُلِفَ في معناه، فقيل: راجعينَ إليه بالتوبة والإخلاص[5]. وقال يحيى بن سلَّام والفرَّاء: مُقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مُطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأَسْلَت:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٢، وقول مجاهد ومن وافقه أخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٤٩٤ - ٤٩٦، وكذلك أخرج القول الذي يليه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٢) ٧/ ١٤٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٣٣.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

فـإن تـابـوا فـإنَّ بـنـي سُـلَـيـمٍ وقـومَـهُـمُ هـوازِنَ قـد أنـابـوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب ثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماوردِيُّ[١]: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أنَّ أصلَه القطع، ومنه أُخِذَ اسمُ النَّاب؛ لأنه قاطع، فكأنَّ الإنابةَ هي الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع، مأخوذٌ من نابَ ينوبُ إذا رجع مرةً بعد أخرى، ومنه النَّوْبة؛ لأنها الرجوعُ إلى عادة. الجوهري[٢]: وأناب إلى الله: أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبَتُك ونيابتُك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره.

وانتصب على الحال؛ قال محمد بن يزيد: لأنَّ معنى: «أَقِمْ وَجْهَكَ»: فأقيموا وجوهَكم منيبين. وقال الفرَّاء: المعنى: فأَقِمْ وجهَكَ ومَنْ معكَ منيبين[٣]. وقيل: انتصبَ على القطع، أي: فأَقِمْ وجهَكَ أنتَ وأمتكَ المنيبين إليه؛ لأنَّ الأمرَ له أمرٌ لِأُمَّته، فَحسُنَ أن يقول: منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٤] [الطلاق: ١]. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وامتثِلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيَّن أنَّ العبادة لا تنفع إلَّا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء»[٥] و«الكهف»[٦]. وغيرهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تأوَّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣١٣، وما قبله منه.

(٢) في الصحاح (نوب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٥.

(٥) ٦/ ٢٩٧ فما بعد.

(٦) ١١/ ٢٠٦ فما بعد.

أهل الأهواء والبِدَع[١]. وقد مضى في الأنعام[٢] بيانُه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرَّقوا دينَهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى[٣]. وقاله قتادة ومَعْمَر[٤].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليُّ بن أبي طالب[٥]، أي: فارقوا دينَهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد[٦]. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً. قاله الكَلْبيُّ. وقيل: أدياناً. قاله مقاتل. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون مُعجَبون[٧]؛ لأنهم لم يتبيَّنوا الحقَّ وعليهم أن يتبيَّنوه[٨]. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض[٩]. وقول ثالث: أنَّ العاصي لله عزَّ وجلَّ قد يكون فَرِحاً بمعصيته، فكذلك الشيطانُ وقُطَّاعُ الطريق وغيرُهم، والله أعلم. وزعم الفرَّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينَهم ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحَّاس[١٠]: وإذا كان متَّصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولو كان بلا حرف لجاز.

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٢) ٩/ ١٣٣ فما بعد.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٩٨ عن قتادة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٢٧٤ ، والتيسير ص ١٠٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٤ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦١ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ ، وما قبله منه. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٥ .

Obeikandl.com

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: قَحْطٌ وشِدَّة[(١)] ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مُقبِلين عليه بكلِّ قلوبهم لا يشركون[(٢)]. ومعنى هذا الكلام التعجُّب؛ عجب نبيُّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحُجج عليهم؛ أي إذا مسَّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرضٍ وشدَّةٍ دَعَوْا ربَّهم، أي: استغاثوا به في كشف ما نزلَ بهم، مُقبلين عليه وحدَه دون الأصنام؛ لعلمهم بأنَّه لا فَرَج عندها. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: عافية ونعمة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: هي لامُ كي. وقيل: هي لامُ أمرٍ فيه معنى التهديد، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[(٣)] [الكهف: ٢٩]. ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[(٤)]. وفي مصحف عبد الله: «وَلِيتَمَتَّعُوا»[(٥)]، أي: مكَّناهم من ذلك لكي يتمتَّعوا، فهو إخبارٌ عن غائب، مثل: «لِيَكْفُرُوا». وهو على خطِّ المصحف خطابٌ بعد الإخبار عن غائب، أي: تمتَّعوا أيها الفاعلون لهذا[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ استفهامٌ فيه معنى التوقيف. قال الضحَّاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢٢، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

«سُلْطَاناً» أي: كتاباً[١]. وقاله قتادة والربيع بن أنس[٢]. وأضافَ الكلامَ إلى الكتاب توسُّعًا. وزعم الفرَّاءُ أنَّ العربَ تؤنِّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليكَ السلطانُ. فأما البصريون فالتذكيرُ عندهم أفصحُ، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائزٌ؛ لأنه بمعنى الحجة[٣]، أي: حُجَّةٌ تنطقُ بشِرْكِكم. قاله ابن عباس والضحَّاك أيضاً[٤]. وقال عليُّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سَليط؛ مثل رَغيف ورُغفان، فتذكيرُه على معنى الجمع، وتأنيثُه على معنى الجماعة[٥]. وقد مضى في «آل عمران»[٦] الكلامُ في السلطان أيضاً مستوفى. والسلطان: ما يدفعُ به الإنسانُ عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ﴾ يعني الخِصْبَ والسَّعةَ والعافية. قاله يحيى بن سلاَّم. النَّقَّاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعَة. والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُواْ بِهَا ۖ﴾ أي: بالرحمة. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاءٌ وعقوبة. قاله مجاهد. السُّدِّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفَرَج. قاله الجمهور. وقال الحسن: إنَّ القنوطَ تركُ فرائضِ الله سبحانه وتعالى في السرِّ[٧]. قَنِطَ يَقْنَطُ، وهي قراءة العامَّة. وقَنَطَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٤ عن قتادة، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٠٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٢ من غير نسبة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٦) ١/ ٣٥٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٥ .

يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب[١]. وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِطُ» بالكسر فيهما، مثل حَسِبَ يَحْسِبُ. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدَّة، ويبطَر عند النعمة، كما قيل:

كـحـمـارِ الـسَّـوءِ إن أعـلَـفْـتَـهُ رَمَـحَ الـنـاسَ[٢] وإن جـاعَ نَـهَـقْ[٣]

وكثيرٌ ممن لم يرسُخِ الإيمانُ في قلبه بهذه المثابة، وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربَّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدَّة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعُ الخير في الدنيا لمن يشاء ويُضيِّق لمن يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ لمَّا تقدَّم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِرُ أمرَ مَنْ وسَّعَ عليه الرزقَ أن يُوصِلَ إلى الفقير كفايتَه؛ ليمتحِنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمرادُ هو وأمتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمرَ بإيتاء ذي القربى؛ لِقُرْب رَحِمِه، وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلةُ الرِّحِم. وقد

---

(١) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) أي: ضرب الناس بحافره. اللسان (رمح).

(٣) قائله مسكين الدارمي، وهو في الشعر والشعراء ص ٥٤٤، وبهجة المجالس ١/ ١٠٤، وخزانة الأدب ٣/ ٧٠.

فضَّل رسولُ الله ﷺ الصدقةَ على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنَّكِ لو أعطيْتِها أخوالَكِ كان أعظَمَ لأجْرِك»[١].

الثانية ـ واختُلِفَ في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخةٌ بآية المواريث. وقيل: لا نسخَ، بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح.

قال مجاهد وقتادة: صِلةُ الرَّحِم فرضٌ من الله عزَّ وجلَّ، حتى قال مجاهد: لا تُقبَلُ صدقةٌ من أحدٍ ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المرادُ بالقربى أقرباءُ النبيِّ ﷺ[٢]. والأوَّل أصحُّ؛ فإنَّ حقَّهم مُبيَّنٌ في كتاب الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: إنَّ الأمرَ بالإيتاء لذي القُربى على جهة النَّدب. قال الحسن: «حقَّه» المواساة في اليسر، وقولٌ ميسورٌ في العسر[٣]. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعمِ السائلَ الطوَّاف[٤]. «وابن السبيل»: الضيف[٥]، فجعل الضيافةَ فرضاً، وقد مضى جميعُ هذا مبسوطاً مُبيَّنًا في مواضعه[٦]، والحمد لله.

الثالثة ـ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساك إذا أُريدَ بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدَّم في «البقرة»[٧] القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٢٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٦.

(٦) ٢/ ٢٣٢ و٣/ ٥٩ و١٠/ ٢١ - ٢٢.

(٧) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

فيه أربع مسائل:

الأولى - لمَّا ذكر ما يُراد به وجهُه ويُثيبُ عليه ذكرَ غيرَ ذلك من الصفة وما يُراد به أيضاً وجهُه.

وقرأ الجمهور: «آتَيْتُمْ» بالمدِّ بمعنى: أعطيتُم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ، بمعنى: ما فعلتُم من رِبًا لِيَرْبُو؛ كما تقول: أتيتُ صواباً وأتيتَ خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والربا الزيادة[1]. وقد مضى في «البقرة» معناه[2]، وهو هناك مُحرَّمٌ وها هنا حلال. وثبتَ بهذا أنه قسمان: منه حلالٌ ومنه حرام[3]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: الرِّبا رِبَوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الرِّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يُلتمس ما هو أفضلَ منه. وعن الضحَّاك في هذه الآية: هو الرِّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثَابَ ما هو أفضلُ منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجرٌ وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريدُ هديةَ الرجلِ الشيءَ يرجو أن يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يُؤجَرُ صاحبه، ولكن لا إثمَ عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية[4]. قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آيةٌ نزلت في هِبة الثواب. قال ابن عطية[5]: وما جرى مجراها ممَّا يصنعه الإنسان لِيُجازى عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثمَ فيه فلا أجرَ فيه ولا زيادةَ عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي[6]. وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدمَ وفدُ ثَقيفٍ على رسول الله ﷺ ومعهم هديَّةٌ فقال: «أهديةٌ أم صدقة؟ فإن كانت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وقراءة الجمهور وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ٣٠ .
(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٩٠ .
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧٩ .
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٤ .
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما قبله منه.
(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٩ .

هديةً فإنَّما يُبْتَغى بها وجهُ رسولِ الله ﷺ وقضاءُ الحاجة، وإن كانت صدقةً فإنما يُبْتَغى بها وجهُ الله عزَّ وجلَّ» قالوا: لا بل هدية. فقَبِلها منهم، وقعدَ معهم يُسائلهم ويسألونه[١]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قومٍ يُعطون قراباتِهم وإخوانَهم على معنى نفعِهم وتمويلِهم والتفضُّلِ عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجهِ النفع لهم. وقال الشَّعبيُّ: معنى الآية: أنَّ ما خدمَ الإنسانُ به أحداً وخفَّ له لينتفع به في دنياه فإنَّ ذلك النفعَ الذي يَجزي به الخدمةَ لا يربو عند الله[٢]. وقيل: كان هذا حراماً على النبيِّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] فنهى أن يُعطى شيئاً فيأخذَ أكثرَ منه عِوضاً[٣]. وقيل: إنَّه الربا المحرَّم[٤]، فمعنى: «لا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يُحكَمُ به لآخذِه، بل هو للمأخوذِ منه[٥]. قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش[٦].

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمَنْ يَهبُ يطلُبُ الزيادة من أموال الناس في المكافأة[٧]. قال المُهَلَّب: اختلفَ العلماءُ فيمن وَهَب هبةً يطلبُ ثوابَها وقال: إنما أردتُ الثواب، فقال مالكٌ: يُنظَرُ فيه؛ فإن كان مثلُه ممن يطلبُ الثوابَ من الموهوبِ له فله ذلك، مثلُ هبة الفقير للغنيِّ، وهبةُ الخادم لصاحبه، وهبةُ

(١) سنن النسائي ٦/ ٢٧٩، وسنن النسائي الكبرى (٦٥٥٧) من طريق أبي حذيفة، عن عبد الملك بن محمد بن نُسَير، عن عبد الرحمن بن علقمة، به. أبو حذيفة وعبد الملك مجهولان فيما ذكره الحافظ في التقريب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٤ عن الحسن البصري.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٠.

الرجل لأميره ومَن فوقه. وهو أحد قَولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط. وهو قول الشافعيِّ الآخر؛ قال: والهبةُ باطلةٌ لا تنفعه؛ لأنها بيعٌ بثمنٍ مجهول. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوع الهبة التبرُّع، فلو أوجَبْنا فيها العِوضَ لَبطلَ معنى التبرُّعِ وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرَّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظَ البيع على ما يُستَحقُّ فيه العِوَض، والهبةُ بخلاف ذلك. ودليلُنا ما رواه مالك في «موطَّئه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما رجلٍ وهَبَ هبةً يرى أنها للثواب فهو على هِبته حتى يرضى منها[1]. ونحوه عن عليٍّ ﷺ قال: المواهبُ ثلاثةٌ: مَوْهبةٌ يُرادُ بها وجهُ الله، وموهبةٌ يُرادُ بها وجوهُ الناس، وموهبةٌ يُرادُ بها الثواب؛ فموهبةُ الثواب يرجع فيها صاحبُها إذا لم يُثَبْ منها[2]. وترجم البخارِيُّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساقَ حديث عائشة قالت: كانَ رسول الله ﷺ يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها[3]. وأثابَ على لِقْحةٍ[4] ولم يُنْكِرْ على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي[5].

الثالثة ـ ما ذكره عليٌّ ﷺ وفصَّله من الهبة صحيح، وذلك أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها ـ أن يُريدَ بها وجهَ الله تعالى ويبتغي عليها الثوابَ منه. والثاني ـ أن يُريدَ بها وجوهَ الناس رياءً؛ ليحمدوه عليها، ويُثنوا عليه من أجلها. والثالث ـ أن يُريد بها الثوابَ من الموهوب له، وقد مضى الكلامُ فيه. وقال ﷺ: «الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[6]. فأمَّا إذا أراد بهبتِه وجهَ الله تعالى، وابتغى عليه الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٥٤.

(٢) أخرجه مالك في المدونة الكبرى ٦/ ١٠٩ و١٤١.

(٣) صحيح البخاري (٢٥٨٥)، وهو في مسند أحمد (٢٤٥٩١).

(٤) جمع لقاح: وهي ذوات الألبان من النوق. اللسان (لقح).

(٥) في سننه (٣٩٤٥)، وهو في مسند أحمد (٧٩١٨).

(٦) سلف ٣/ ٢٧٠.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك مَنْ يصِلُ قرابتَه ليكون غنيًا حتى لا يكون فقيراً[١] كَلَّا فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهرَ بذلك ديناً فليس لوجه الله، وإن كان لِما له عليه من حقّ القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأمَّا من أراد بهبتِه وجوهَ الناس رياءً ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها، فلا منفعةَ له في هبته، لا ثوابَ في الدنيا ولا أجرَ في الآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية: [البقرة: ٢٦٤].

وأمَّا مَنْ أراد بهبته الثوابَ من الموهوب له فله ما أرادَ بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يُثَبْ بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرضَ منها بأزْيَدَ من قيمتها، على ظاهر قول عمرَ وعليّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أنَّ الهبةَ ما كانت قائمةَ العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوعُ فيها وإن أثابه الموهوبُ فيها أكثرَ منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمةَ العين لم تتغيَّر فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمةُ كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فَوْتِ الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً. قاله ابن العربي[٢].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القرَّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافعٌ وحده: بضمِّ التاء [والواو] ساكنةٌ على المخاطبة، بمعنى: تكونوا ذَوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتُنا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث[٣]. ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يُثيبُ عليه؛ لأنه لا يقبلُ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه وكان خالصاً له، وقد تقدَّم في

(١) كلمة فقيراً من (ظ).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩، وما بين حاصرتين ليس فيه ولا في النسخ، وهو من زاد المسير ٦/ ٣٠٤. وقراءة نافع في السبعة ص ٥٠٧، والتيسير ص ١٧٥. وقراءة أبي مالك شاذة.

«النساء»[١]. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من صدقة[٢]. ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرةَ أضعافه أو أكثر، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقُلْ: فأنتم المضعفون؛ لأنه رجعَ من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وفي معنى المُضْعِفِين قولان: أحدهما ـ أنه تُضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أُضِعفَ لهم الخير والنعيم، أي: هم أصحابُ أضعاف، كما يُقال: فلانٌ مُقْوٍ إذا كانت إبلُه قويةً، أَوْلَه أصحابٌ أقوياء[٣]. ومُسْمِنٌ إذا كانت إبلُه سِماناً، ومُعْطِشٌ إذا كانت إبلُه عِطاشاً، ومُضعِفٌ إذا كانت إبلُه ضعيفةً؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخبيثِ المُخْبِثِ الشيطانِ الرجيم»[٤]. فالمُخبِثُ: الذي أصابه خبث، يقال: فلانٌ رديء أي هو رَدِيء في نفسه. ومُرْدِئ: أصحابُه أردِئاء[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاج على

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، والطبري ١٨/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. قال البوصيري: إسناده ضعيف؛ قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خبرٍ عبيد الله ابن زَحر وعلي بن يزيد والقاسم، فذاك مما عملته أيديهم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ ببعضه.

المشركين، وأنه الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ لا يفعل. ثم نزَّه نفسَه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وأضافَ الشركاءَ إليهم لأنهم كانوا يسمُّونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ اختلف العلماء في معنى الفسادِ والبرِّ والبحر، فقال قتادة والسُّدِّي: الفساد: الشرك، وهو أعظم الفساد(١). وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد: فسادُ البرِّ قتلُ ابنِ آدم أخاه؛ قابيلُ قتلَ هابيل. وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً(٢). وقيل: الفسادُ: القحطُ وقِلَّةُ النبات وذهابُ البركة(٣). ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصانُ البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحَّاس: وهو أحسن ما قيل في الآية(٤). وعنه أيضاً: أنَّ الفساد في البحر: انقطاعُ صيدِه بذنوب بني آدم(٥). وقال عطية: فإذا قلَّ المطرُ قَلَّ الغَوْصُ عنده، وأخفقَ الصيادون، وعميت دوابُّ البحر(٦). وقال ابن عباس: إذا مطرتِ السماءُ تفتحتِ الأصدافُ في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ(٧). وقيل: الفسادُ: كسادُ الأسعار وقِلَّةُ المعاش. وقيل: الفسادُ: المعاصي وقطعُ السبيل والظلم(٨)، أي: صار

(١) زاد المسير ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٤، والطبري ١٨/ ٥١١ - ٥١٢ عن مجاهد، وهو كذلك في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٣٥، والوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٦ مختصراً، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

هذا العملُ مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كلُّه متقارب. والبرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العُبَّاد: أنَّ البرَّ اللسانُ، والبحرَ القلبُ؛ لظهور ما على اللسان وخفاءِ ما في القلب. وقيل: البَرُّ: الفَيافي، والبحر: القُرى. قاله عكرمة. والعرب تسمِّي الأمصارَ البحار. وقال قتادة: البَرُّ: أهل العمود، والبحر: أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إنَّ البرَّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شطِّ نهر[1]. وقاله مجاهد؛ قال: أمَا واللهِ ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهي بحر[2]. وقال معناه النحَّاس؛ قال: في معناه قولان: أحدهما ـ ظهر الجَدْب في البر، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. أي: ظهر قِلَّةُ الغيث وغلاءُ السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾ أي: عقاب بعض ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه أظهرتِ المعاصي مِنْ قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوَّلُ مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذفٌ واختصارٌ دَلَّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرتِ المعاصي في البَرِّ والبحر، فحبس اللهُ عنهما الغيثُ، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقابَ بعضِ الذي عملوا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّهم يتوبون[3]. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لأنَّ معظمَ الجزاء في الآخرة.

والقراءة «لِيُذِيقَهُمْ» بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم، أي: نُذيقهم عقوبةَ بعض ما عملوا[4].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٣/ ٥٨٣ و١٨/ ٥١٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣١).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٦ عنهم وعن عكرمة وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ عن قنبل والسلمي والأعرج. ورواية قنبل عن ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة يعقوب وهو من العشرة في رواية روح عنه في النشر ٢/ ٣٤٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض ليعتبروا بِمَنْ قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبةُ مَنْ كذَّب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين فأُهلِكوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجّاج: أي: أقِمْ قصدَك، واجعل جهتَك اتِّباعَ الدّين القيِّم، يعني الإسلام[١]. وقيل: المعنى: أوضحِ الحقَّ، وبالِغْ في الإعذار، واشتغِلْ بما أنت فيه، ولا تحزَنْ عليهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يردُّه الله عنهم، فإذا لم يرُدَّه لم يتهيَّأْ لأحدٍ دفْعُه. ويجوز عند غير سيبويه «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ» وذلك عند سيبويه بعيد، إلَّا أن يكون في الكلام عطف[٢]. والمراد يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: يتفرَّقون. وقال الشاعر:

وكُنَّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا

أي: لن يتفرَّقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير[٣]. والأصل يتصدَّعون، ويقال: تصدَّع القومُ إذا تفرَّقوا؛ ومنه اشتُقَّ الصُّداعُ؛ لأنه يُفرِّق شُعَبَ الرأس[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٨ - ٣١٩ ، والبيت قائله متمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨ ، والكامل ٣/ ١٤٤٠، وبهجة المجالس ٢/ ٨٠٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره[١]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطِّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح[٢]. ومنه: مهدُ الصبيِّ. والمهادُ: الفراشُ، وقد مَهَدْتُ الفراشَ مَهْدًا: بسطتُه ووطَّأته. وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها. وتمهيدُ العُذرِ: بسطُه وقبولُه. والتمهُّد: التمكُّن[٣]. وروى ابن أبي نَجيحٍ عن مجاهد: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يَمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصَّدَّعون ليجزيهم الله، أي: ليميِّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسالُ الرياح مبشِّراتٍ، أي: بالمطر لأنها تتقدَّمه[٥]. وقد مضى في «الحجر»[٦] بيانه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب[٧]. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: في البحر عند هبوبها. وإنما زاد «بِأَمْرِهِ» لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بُدَّ من إرساء

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٧.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٩ عن يحيى بن سلام.

(٣) الصحاح (مهد).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٦ - ٥١٧، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٥٥).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) ١٢/ ١٩٤.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٣٠٨.

السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني الرزق بالتجارة[١] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلُّه مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: المعجزات والحجج النيِّرات ﴿فَانتَقَمْنَا﴾ أي: فكفروا فانتقمنا ممَّن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «حقًّا» نصب على خبر كان، و«نصر» اسمها[٢]. وكان أبو بكر يقف على «حَقًّا» أي: وكان عقابُنا حقًّا، ثم قال: «علينا نصرُ المؤمنين» ابتداء وخبر[٣]؛ أي: أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا.

ورُويَ من حديث أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ يَذُبُّ عن عرضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على اللهِ تعالى أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة» ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ذكره النحَّاس والثعلبيُّ والزَّمخشرِيُّ وغيرهم[٤].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ قرأ ابن مُحيصن وابن كثير وحمزة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٥ بمعناه.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦، والكشاف ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦. وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٣٤) والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٦ من طريق ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ﷺ، به. ليث وشهر ضعيفان. وهو في مسند أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية.

والكسائي: «الريح» بالتوحيد. والباقون بالجمع[١]. قال أبو عمرو: وكلُّ ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحَّد[٢]. وقد مضى في «البقرة»[٣] معنى هذه الآية وفي غيرها.

«كِسَفًا» جمع كِسْفة: وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسْفًا» بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كِسْفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المُضمَرُ الذي بعده عائداً عليه، أي: فترى الودقَ ـ أي المطر ـ يخرج من خلال الكِسَف؛ لأنَّ كلَّ جَمْعٍ بينه وبين واحده الهاء لا غير، فالتذكيرُ فيه حَسَن. ومن قرأ: «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائدٌ على السحاب. وفي قراءة الضحَّاك وأبي العالية وابن عباس: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ» ويجوز أن يكون خَلَل جمعَ خِلال[٤]. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم[٥].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين قد ظهر الحزنُ عليهم لاحتباس المطرِ عنهم[٦]. و«مِنْ قَبْلِهِ» تكريرٌ عند الأخفش معناه التأكيد، وأكثر النَّحويين على هذا القول. قاله النحّاس. وقال قُطْرُب: إن «قبل» الأولى للإنزال

(١) السبعة ص ١٧٢ ، والتيسير ص ٧٨ سوى قراءة ابن محيصن.
(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣ دون نسبة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١٩ ونسبه إلى أبي بن كعب ﷺ.
(٣) ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٢ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ . وقراءة: «كِسْفاً» بسكون السين عن ابن عامر برواية هشام عنه في السبعة ص ٥٠٨ ، والتيسير ص ١٧٥ وعن أبي جعفر وهو من العشرة في النشر ٢/ ٣٤٥ . وقراءة: «يخرج من خَلَلِهِ» في المحتسب ٢/ ١٦٤ عن ابن عباس والضحاك والحسن، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ بمثله وزاد في نسبتها إلى علي، وزاد المسير ٦/ ٣٠٩ عن ابن عباس وأبي العالية وزاد في نسبتها إلى ابن مسعود ومجاهد، وهي قراءة شاذة.
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥ .
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢١ .

والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلَّ على الزرع المطرُ؛ إذ بسببه يكون. ودلَّ عليه أيضاً ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ على ما يأتي. وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. واختار هذا القول النحّاس، أي: من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: ليائسين. وقد تقدَّم ذِكْرُ السَّحاب[١].

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر[٢]، أي: انظروا نظرَ استبصارٍ واستدلال، أي: استدِلُّوا بذلك على أنَّ من قدِرَ عليه قادرٌ على إحياء الموتى.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: «آثَارِ» بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضافٌ إلى مفرد. والأثرُ فاعل «يُحْيي»، ويجوز أن يكون الفاعلُ اسمَ الله عزَّ وجلَّ. ومن قرأ: «آثَارِ» بالجمع فلأنَّ رحمةَ الله يجوز أن يُرادَ بها الكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣] [إبراهيم: ٣٤]. وقرأ الجحدريُّ وأبو حَيوة وغيرهما: «كَيْفَ تُحْيي الأرضَ» بتاء، ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأنَّ أثَرَ الرحمة يقومُ مقامَها فكأنه هو الرحمة، أي: كيفَ تُحيي الرحمةُ الأرضَ أوِ الآثار. و«يُحيي» أي: يُحيي اللهُ عزَّ وجلَّ، أو المطرُ أو الأثرُ فيمن قرأ بالياء. و﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ في موضع نصبٍ على الحال على الحمل على المعنى؛ لأنَّ اللفظَ لفظُ الاستفهام، والحالَ خبرٌ؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله مُحييةً للأرض بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩ دون قوله: وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث... إلى قوله: على ما يأتي. وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٨. وذكر السحاب سلف ٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٤٨ - ٤٤٩، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥.

موتها[١]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيرُه. قال محمد بن يزيد: لا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنثٍ غيرِ حقيقي، نحو أعجبني الدارُ وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر. والمعنى: فرأوا الأثرَ مصفرًّا، واصفرارُ الزرعِ بعد اخضراره يدلُّ على يبسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح. ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لَيَظَلُّنَّ؛ وحَسُنَ وقوعُ الماضي في موضع المستقبل لِما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكونُ إلّا بالمستقبل. قاله الخليل وغيره[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وَضَحتِ الحُججُ يا محمد؛ لكنَّهم لإلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولُهم وعمِيت بصائرُهم، فلا يتهيَّأ لكَ إسماعُهم وهدايتُهم. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: لا تُسمع مواعظَ الله إلّا المؤمنين الذين يُصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهداية. وقد مضى هذا في «النمل»[٣] ووقع قولُه ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾ هنا بغير ياء[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، ونسب قراءة: «كيف تُحيي الأرض» أيضاً إلى محمد بن السَّميفع، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣١٠ ونسبها إلى عثمان بن عفان وأبي رجاء وأبي عمران الجوني وسليمان التيمي، وهي قراءة شاذة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ دون قوله: واصفرار الزرع... إلى قوله: لا تلقح.

(٣) ١٦/ ٢٠٧.

(٤) الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٥٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: «مِنْ ضَعْفٍ» من نطفةٍ ضعيفة. وقيل: «مِنْ ضَعْفٍ» أي: في حال ضعف، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعن الهرم[(١)].

وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهنَّ، الباقون بالضم، لغتان، والضمُّ لغة النبيِّ ﷺ[(٢)]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ» بالفتح فيهما، «ضُعْفًا» بالضمِّ خاصةً؛ أراد أن يجمع بين اللغتين[(٣)]. قال الفرَّاء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم[(٤)]. الجوهري: الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوّة[(٥)]. وقيل: الضَّعفُ بالفتح في الرأي، وبالضمِّ في الجسد[(٦)]؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يُخدَعُ في البيوع... أنه يبتاع وفي عقْدَتِه ضُعف[(٧)].

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من قوّةٍ وضعف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على إرادته.

وأجاز النَّحْويون الكوفيون «من ضَعَفٍ» بفتح العين، وكذا كلُّ ما كان فيه حرفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٥ - ٥٢٦ بمعناه.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٥٠، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن الجحدري وأبي عبد الرحمن والضحاك عكس ذلك بأنهم ضمُّوا الضاد في الأول والثاني وفتحوا «ضعفاً».

(٤) زاد المسير ٣/ ٣٧٨.

(٥) الصحاح (ضعف).

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٤٨٢.

(٧) سلف ٤/ ٤٣٥ و٦/ ٦٦.

من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون[٢]. ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا ردٌّ لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من غير طريقٍ أنه تعوَّذ منه، وأمر أن يُتعوَّذ منه، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيُّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، ولكن سليه أن يُعيذَكِ من عذاب جهنَّم وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرَّجها البخاريُّ ومسلم وغيرهما[٣]. وقد ذكرنا منها جملةً في كتاب «التذكرة»[٤].

وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بُدَّ من خمدةٍ قبل يوم القيامة، فعلى هذا قالوا: ما لَبِثنا غيرَ ساعةٍ. والقول الآخر ـ أنهم يَعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيبٍ وعلى غيرِ ما يدرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذِّبون في الدنيا[٥]؛ يقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصِّدقِ والخير، وأرضٌ مأفوكة: ممنوعةٌ من المطر[٦].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩، والحديث الذي ذكره المصنف أخرجه أحمد (٣٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦٣). ووقع في النسخ سوى (ظ): خرجها مسلم والبخاري وغيرهما.

(٤) ص ١١٥ و١٤٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

وقد زعمَ جماعةٌ من أهل النظر أنَّ القيامة لا يجوز أن يكون فيها كَذِبٌ لما هم فيه، والقرآن يدلُّ على غير ذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كما صُرِفوا عن الحقِّ في قَسَمِهم أنهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُصرفون عن الحقِّ في الدنيا، وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾[1] [الأنعام: ٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ اختُلِفَ في الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة. وقيل: جميع المؤمنين[2]. أي: يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم: لقد لبِثْتُم في قبوركم إلى يوم البعث[3]. والفاء في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم مُنكرين البعث فهذا يوم البعث[4]. وحكى يعقوب عن بعض القُرَّاء ـ وهي قراءة الحسن ـ «إلى يوم البَعَث» بالتحريك، وهذا ممَّا فيه حرفٌ من حروف الحلْق[5]. وقيل: معنى ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ: لقد

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ ببعضه.

(٢) زاد المسير ٥/ ٩٧ و٦/ ٣١٢ و٧/ ٤٠٢، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢. وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ القول الأول ونسبه للكلبي.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٧.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ دون نسبة القراءة إلى الحسن، وقد نُسبت إليه في المحتسب ٢/ ١٦٦، والكشاف ٣/ ٢٢٧، وهي قراءة شاذة.

لبثتُم إلى يوم البعث. قاله مقاتل وقتادة والسُّدِّي[١]. القشيري: وعلى هذا «أُوتُوا الْعِلْمَ» بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذارُ يومئذٍ[٣]. وقيل: لمَّا ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يُعذَروا. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالُهم حالُ من يَستَعتِبُ ويَرجع[٤]؛ يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٥]، وذلك إذا كنتَ جانياً عليه، وحقيقةُ أعتبتُه: أزلْتُ عتبه[٦]. وسيأتي في «فصلت»[٧] بيانُه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كلِّ مَثَلٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٢٧ عن قتادة.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) الصحاح (عتب).

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٧) عند تفسير الآية (٢٤).

(٨) السبعة ص ٥٠٩ ، والتيسير ص ١٧٦ .

يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، ويُنبِّههم على التوحيد وصِدْقِ الرسل[١]. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزةٍ، كفلقِ البحر والعصا وغيرهما ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين[٢] ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: تتبعون الباطلَ والسحر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى لا يفهموا الآياتِ عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلَّةَ التوحيد[٣].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم فإنَّ الله ينصرك[٤] ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفِزَّنَّكَ عن دينك[٥] ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمتُه؛ يقال: استخَفَّ فلانٌ فلاناً أي: استجهلَه حتى حملَه على اتِّباعه في الغيِّ[٦]. وهو في موضع جزمٍ بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنِيَ على الفتح كما يُبنى الشيئانِ إذا ضُمَّ أحدُهما إلى الآخر. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع[٧]. وقد مضى في «الفاتحة»[٨].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) الوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٩ .

(٤) مجمع البيان ٢١/ ٤٣ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٢ .

(٦) تهذيب اللغة ٧/ ٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٨) ١/ ٢٢٩ .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وهي أربعٌ وثلاثون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك[3]. والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم[4] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف:٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٢٩ و٤٢٩ و٥/ ١٥.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١، وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[١]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[٢]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[٣] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[٤].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيريّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[٥].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨/ ٨٦، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليُّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

(١) ١٣/ ١١٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/ ٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/ ٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتِهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغَنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/٢٧ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.
وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[١] [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه[٢]. وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه[٣].

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[٤]. وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»[٥]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ. السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠. والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن المُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُوِيَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[١] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»[٣]. إلى غير ذلك. وكلُّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»[٤]. ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية - وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجشَة وسَلَمة بن الأكوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

(١) ١/ ١٥٤ .

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.
والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﷺ.
والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﷺ. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوَّ(١). وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً(٢). قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننَا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجَّار، حبَّذا محمدٌ من جارِ(٣). وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعة يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢.

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندِي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[١]. فلو جازَ استصلاحُها لمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[٢] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[٣]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلُ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[٤].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيَضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

---

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ ، وينظر السبعة ص ٢٦٧ ، والتيسير ص ١٣٤ ، والنشر ٢/ ٢٩٩ . وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢ .

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّث ويُذكَّر[٣]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثِقلاً وصَمماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لمَّا ذكر عذاب الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢. وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩.

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤.

(٧) ٨/ ٣٤٥.

(٨) ١/ ٣٠١.

(٩) معنى «العزيز» سلف ٤٠٣ - ٤٠٤، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تكون «تَروْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البَتّة[1]. النحّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأَولى أن يكونَ مُستأنَفاً[2]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[3]. ويكون «بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[4]. وقد مضى في «الرعد»[5] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[6]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهية أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[7]. والخلق بمعنى المخلوق[8]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[9] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٥) ١٢/ ٦ - ٧ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ ، والكلام الذي قبله منه.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠ .

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر[١]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[٢]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[٣]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحّاس[٤]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[٥]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[٦]. قال وهب: كان ابنَ أختِ أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[٧]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥ .

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤ . ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل ـ قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُويَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقبِلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١.

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧.

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦.

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[1] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[2].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[3]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[4]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[5]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلَغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[6].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).
(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .
(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .
(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .
(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُويَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤ ، وأحمد في الزهد ص ٦٥ ، والطبري ٣٨/ ٥٤٨ .

(٢) سلف ١/ ٢٨٧ .

(٣) سلف ١٢/ ٨٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣ .

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلّا أن هذا الوجه عنده بعيد[١]. وقال الزجّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأنْ يشكر الله تعالى[٢]. وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»[٣] وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود[٤]. وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ[٦]. وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش[٧].

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنه وامرأته كانا كافرين، فما زال يعظُهُما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»[٨] وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣. وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥.
(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣.
(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣.
(٨) (١٢٤)، وقد سلف ٨/ ٤٤٥.

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[1].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَا بُنَيِّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[2]، وقد مضى في «هود»[3] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يُقال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٣) ١١/ ١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشْرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصيَّنا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠.

(٢) ١٦/٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٥) ١٣/٥٢ - ٥٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل[(١)]. وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد[(٢)]. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذلِ من ناهٍ فَيزْجُرَها ... إنَّ العواذِلَ فيها الأَيْنُ والوَهَنُ[(٣)]

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ[(٤)].

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس[(٥)]: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته[(٦)]. ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧ ، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧ ، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٩ ، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطمَ الصبيّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[١]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحَّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[٣]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[٤]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[٥].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بيَّنّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[٦]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[٧].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٢) ٤/ ١٠٦ - ١١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦.

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[١].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][٢]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[٣]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبَعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، والحديث سلف ٦/ ١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠، ونسبه إلى ابن السائب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنَه أن يفهَمَه؛ لأنَّ الخردلَةَ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[١]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[٢]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكَنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[٣]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، وما بين حاصرتين منه.

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربَتْه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةٌ من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ ... أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأَرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤.
(٣) السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٥٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.
(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢.
(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧.

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نَالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) ٢/ ٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦.

وألَّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ ... أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة.

وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ ، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣ .

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[١]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية - معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٢]. وقيل: هو أن تلوِيَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[٣]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثكَ أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[٤].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[٥]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[٦].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣) ، والبخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥ .

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[(١)]، وقد مضى في «سبحان»[(٢)]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[(٣)]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَّحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[(٤)]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[(٥)]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[(٦)]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[(٧)]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[(٨)].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسَمَ له

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٢) ١٣/ ٨٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.

(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤ .

(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﵄.

(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطَاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

obeikandl.com

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة ـ في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية[٢]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأَتْ شيطاناً»[٣]. وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً[٤]. وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة[٥].

الخامسة ـ وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم[٦]، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك[٧]، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ[٨]، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس ... جَهِيرُ الرُّواء جهيرُ النَّغَمْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١.

وَيَعْدُو على الأيْنَ عَدْوَى الظَّلِيم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[1]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثلِ سواء[2].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[3]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[4]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/ ١٢٦؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤١.

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٢٣.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

obeikandi.com

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[١]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[٢]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما ستَرَ عليك من سيِّئ عملِك»[٤]. النحَّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[٥]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[٦]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[٧] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[٨] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّك، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[٩]. وقد مضى هذا في «الرعد»[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، وقراءة «وأصبغ» شاذة.

(٢) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٧ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ .

(١٠) ١٢/ ٣٥ .

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[١]. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حُجَّة[٢] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[٣]. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[٤]. وقد قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[٥]. النحّاس: و«يُسلِم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[٦] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣.

(٣) سلف ٢/ ١٣١.

(٤) ٤/ ٢٨٤.

(٥) الشاذة ص ١١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧.

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ[١]: قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.[٢]

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجِئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القَفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقَدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القَفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[١]. قال أبو جعفر النحَّاس[٢]: فقد تبيَّنَ أنَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[٢]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[٣]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[٤]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[٥]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[٢]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[٣]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٧] [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[٨]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[٩] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.
(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، وهي قراءة شاذة.
(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.
(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩.
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨.
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.
(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢.
(٩) في (م): الأسدين.
(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[(١)]. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأُفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[(٢)]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّوريُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِى﴾ في موضع الخبر. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/٨٥ - ٨٦ .
(٢) النكت والعيون ٤/٣٤٦ .
(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.
(٤) النكت والعيون ٤/٣٤٦ .

بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠ ، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥ .

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

يماشيهنَّ أخضرُ ذو ظلالٍ ... على حافاتهِ فِلَقُ الدِّنانِ[١]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظُّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[٢]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[٣]:

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطُهُ ... أحابيشُ منها حاسِرٌ ومُقنَّعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[٤]. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ يعني من البحر[٥]. ﴿إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[٦]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[٧]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[٨]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فإنَّكَ لو رأيتَ أبا عُميرٍ ... ملأتَ يديكَ من غدْرٍ وخَتْرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة - وهو الجعدي - ص ١٦٣، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢.

(٤) الشاذة ص ١١٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥.

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨.

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤.

بـالأبْـلَـقِ الـفَـرْدِ مـن تَـيْـمـاءَ مـنـزِلُـهُ حِـصـنٌ حَـصـيـنٌ وجـارٌ غـيـرُ خَـتَّـارِ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: ختَرَه فهو ختَّار[١]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ ـ بالضم والكسر ـ خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحْدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[٢] ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[٣] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[٤]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[٥]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[٦] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٣) ٢/ ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سلف ٤/ ١٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦ .

سورة الملائكة[١] والحديد[٢] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره[٣]، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين[٤]، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه[٦]. قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري[٧]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ[٨]. وقال عبد الله بن

---

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[1]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[2]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[3]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[4]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١.

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١.

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديُّ(١)، وخرَّجه ابن ماجه(٢) من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٣) مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً(٤). وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»(٥) الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ(٦). وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فـلا مُـزْنـةٌ وَدَقَـتْ وَدْقَـهـا ولا أرضَ أبـقَـلَ إبـقـالَـهـا(٧)

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية(٨). وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلٍّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ(٩). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «خَبِيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر(١٠). والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩)، والترمذي (٢١٤٧).
(٢) في سننه (٤٢٦٣).
(٣) ص ٤ - ٧١.
(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥، والتيسير ص ٧٥.
(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.
(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١.
(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.
(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧.
(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠.

open-kandil.com